

الظلم ممارسةً وتَحَمُّلاً ودولةً لها أركان



قال رسول الله (ص) فيما رواه البخاري ومسلم وأحمد: (الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)، ذلك لأنَّ محكمة الحقوق في الآخرة يقام فيها العدل على أكمل وجه، فيقتصر للمظلومين جناً وإنساءً وعجاويز من ظالمهم سادة كانوا أو عامة.

وإذا كان عدوان الشاة على الشاة يستدعي القصاص يومئذ (لَتَنُؤَدِّنَنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلَاءُ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ) - مسلم وأحمد والترمذي-، ومنع امرأة هرتها الماء والطعام يدخلها النار (عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا سَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ حَشَاشِ الْأَرْضِ) - البخاري ومسلم-، وقطع شجرة نافعة لغير مصلحة يستوجب تصويب رأس القاطع في النار (قاطِعُ السِّدْرِ يُصَوَّبُ إِلَى رَأْسِهِ فِي النَّارِ) - رواه البيهقي في الكبرى وحسنه الألباني -، فما بالك بمن يظلم أخاه الإنسان، مؤمناً كان أو غير مؤمن، من أي ملة أو دين أو مذهب؟ بل ما بالك بمن يظلم أولياء الله تعالى من الدعاة والصالحين والآخرين بالمعروف الناهين عن المنكر؟

إنَّ ميزان الآخرة منضبط على معيار واحد يميز العدل من الظلم (الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ

بِمَا كَسَبَتْ لَظُلْمَ الْيَوْمِ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) (غافر/17)، عدل ينجي وطم
يركس في الجحيم. لذلك ورد الأمر بالعدل والتحذير من الظلم قرآنا وسنة في سياقات كثيرة، وبأشد
الصيغ دقة ووضوحاً، يقول تعالى:

(الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمَنُ وَهُمْ
مُهْتَدُونَ) (الأنعام/82).

(احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنَ دُونِ اللَّهِ
فَاهْدُوهُمْ) (إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ) (الصافات/22-23).

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْأَحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ
الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (النحل/90).

ويقول فيما يرويه عنه نبيه (ص): (يَا عِبَادِي إِنَّ زَيْ حَرَّ مَتُ الظُّلْمِ عَلَى نَفْسِي
وَجَعَلْتُهُ بَيْدَكُمْ مُحَرَّراً فَلَا تَطَالَمُوا) - مسلم وأحمد والترمذي -.

ويقول (ص) في حجة الوداع: (... فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْدَكُمْ
حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بِلَادِكُمْ هَذَا لِيُبَلِّغَ
الشَّاهِدُ الْغَائِبَ فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يُبَلِّغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنْهُ) -
البخاري -.

إنَّ التحريم الصارم للظلم مبعثه العدل الإلهي المطلق والرحمة الربانية الشاملة، لأنَّ الظلم مصدر كل
رذيلة ومنبع كل شر، وما الفساد إلا بعض نتائجه (وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ) (البقرة/205)،
وما البغي إلا بعض ثماره (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ بَعِيدُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ)
(يونس/23).

إنَّ الظلم لغة مشتق من أصلين صحيحين ومتداخلين، أحدهما خلاف الضياء ومنه الظلمة والظلام، والثاني
وضع الشيء في غير موضعه كحال الشرك الذي هو في حقيقته جعل المخلوق في منزلة الخالق ولذلك كان
أعظم الظلم (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) (لقمان/13)، كما يعني التصرف في ملك الغير
تعدياً، ولذلك كان الظلم مستحيلاً في حق الله تعالى لأنَّ الكون ملكه يتصرف فيه كما يشاء، كما يؤدي
معنى التعسف وتجاوز الحدود، (وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)
(البقرة/229)، (وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ) (الطلاق/1)، ومعنى
التغيير بالزيادة أو التبديل أو النقص بغير وجه حق، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: (فَبَدَّلَ
الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا
رَجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) (البقرة/59). وقوله عز وجل: (كَلِمَاتٍ
الْجَنَّتَيْنِ آتَتْهُ أَكْثَلُهَا وَلَمْ تَطْلُمْ مِنْهُ شَيْئاً) (الكهف/33).

وقد استعمل لفظ " الظلم " في كلام الشارع لثلاثة أصناف تدور كلها بين الكفر والكبائر هي:

1. ظلم بين المرء وبين الله تعالى وأعظمه الكفر والشرك والنفاق (يَا بُذَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) (لقمان/13).
2. (فَبِهُتَتِ السَّيِّدُ كَفَرًا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (البقرة/258).
3. ظلم بين المرء وبين الناس (إِنَّ زَمَّ السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِبَغْيٍ الْحَقُّ أُؤْلَدُكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (الشورى/42).
4. (وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّهُ سُلْطَانًا) (الإسراء/33).
5. ظلم بين المرء وبين نفسه (فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ) (فاطر/32).
6. (فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ) (التوبة/36).

والأصل في هذه الأصناف كلها ظلم النفس، إذ كل ظالم في حقيقة الأمر ظالم لنفسه وكل محسن محسن إلى نفسه (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) (فصلت/46)، (إِنَّ أَحْسَنَ تُمْمًا أَحْسَنَ تُمْمًا لَأَنْفُسِكُمْ وَإِنَّ أَسْأَفَ تُمْمًا فَلَهَا) (الإسراء/7)، لأنَّ عاقبة تصرفات المرء تعود عليه جزاءً وفاقاً في الآخرة (لَيَسَّ بِأَمَانِيَّكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ) (النساء/123) (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) (النحل/118).

إنَّ الإنسان يولد على الفطرة سويًا، وكما يلتقم ثدي أمه تلقائياً يرضعها حالماً يخرج إلى الحياة يهتدي إلى الصواب وتمييز الحق من الباطل، إلا أنَّ عوامل كثيرة تتدخل فتعصف بسلامة الفطرة وصفائها، عوامل من تربية سقيمة أو أهواء جامحة أو مصالح موهومة، فيميل المرء بذلك إلى الظلم والعدوان. شعوره بالنقص أو الضعة يدفعه للتعالي والتجبر والعدوان والظلم، وحب الشهوات متعاً رخيصة وغرائز مخزية يصرفه عن الحق ويميل به عن الرفق والعدل، وحب الرئاسة وصولاً إليها أو تمسكاً بها يورطه في الجرأة على الدماء والأموال والأعراض، والخوف من السلطان يحمله على متابعتة وارتكاب ما يرضيه، والطمع في عطائه يؤدي به إلى الخضوع المطلق والاستخذاء والركون وخذلان الحق وأهله.

وأساس كل هذا الشرك ظاهراً وخفياً، وعلاجه التوحيد الخالص، لأنَّه يحرر صاحبه من قيود المادة والهوى والخوف والرغبة والطمع، ويلزمه العدل في التصرفات والحق في المعاملات، لأنَّ مراقبة الله تعالى والثقة به واليقين بمعيته ولقائه يملأ القلب قوةً على تجنب الظلم وعزماً على مواجهة أهله، ومناعةً ضد غرائز التسلط والبغي والعدوان والتعلق بالجاه والمال، وقدرةً على المساهمة في إقامة شهادة الحق والعدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإباءً للانطلام الذي هو تحمل الظلم خنوعاً وخضوعاً؛ ذلك

أَنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي مُوَاجَهَةِ الْبَاطِلِ طَرِيقَيْنِ لَا غَيْرَ: مُوَاجَهَتُهُ أَوْ الْهَجْرَةُ عَنْهُ إِنَّ عَجَزَ عَنِ الْمُوَاجَهَةِ وَخَشِيَ الْإِضْرَارَ بِدِينِهِ، وَهُوَ مَا يَشْرَحُهُ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: (إِنَّ السَّادِّينَ تَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا) (النساء/97)؛ وَلَا يَسْتَنِي رَبُّ الْعِزَّةِ مِنْ هَذِهِ الْمَسْئُولِيَةِ إِلَّا الْعِزَّةُ (إِسْرَاءُ) الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا) (النساء/98).

إِنَّ تَحْمِلَ الظُّلْمِ وَالرُّضُوحَ لَهُ يَعْدُ حَالَةً أُخْرَى تَجْعَلُ الْمَظْلُومَ فِي وَضْعِ الظَّالِمِ بِتَنَازُلِهِ عَنْ كُلِّ مَا يَرَاهُ ضَارًّا بِهِ مِنْ أَمْرِ عَقِيدَتِهِ وَعِبَادَتِهِ، فَيَزِدَادُ الظَّالِمُونَ بِهَذَا الْخُنُوعِ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَاسْتِعْبَادًا لِلْخَلْقِ وَإِفْسَادًا لِلدِّينِ، وَتَكْثِيرًا لِلْأَتْبَاعِ وَالْأَعْوَانِ، وَتَنْشَأُ بِذَلِكَ طَبَقَةٌ مُسْتَغْلَةٌ فَاسِدَةٌ طَالِمَةٌ، مِمَّا يُؤْدِي إِلَى التَّفَاقُلِ وَالتَّصَارُعِ وَالفِتْنَةِ. لِذَلِكَ كَانَ لِمُتَحَمِّلِي الظُّلْمِ نَصِيبٌ مِنَ الْمَسْئُولِيَةِ وَمَحَاسِبَةٌ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَنْ يَنْجِيَهُمْ جَوَابُهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ كَانُوا مُسْتَغْلَبِينَ فِي الْأَرْضِ إِلَّا أَنْ تَشْمَلَهُمْ مِنَ اللَّهِ رَحْمَةٌ (قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا) (النساء/97).

إِنَّ الْإِنْظَامَ - وَهُوَ حَالُ الْمَظْلُومِينَ الْقَادِرِينَ عَلَى الْمُوَاجَهَةِ وَدَفْعِ الظُّلْمِ عَنْهُمْ أَوْ الْهَجْرَةِ - يَكُونُ فِي الدِّينِ وَالنَّفْسِ وَالْمَالِ وَالْكَرَامَةِ وَالْعَرَضِ وَالرَّأْيِ، وَكُلُّ ذَلِكَ مَذْمُومٌ يَأْبَاهُ اللَّيْبُ الْكَرِيمُ مِمَّا يَرَاهُ فِيهِ أَوْ مِمَّا يَرَاهُ فِي غَيْرِهِ، لِأَنَّ غَيْبَ وَهْوَانٍ وَمَذَلَّةَ، وَالْمُؤْمِنُ يَنْبَغِي أَنْ تَتَوَفَّرَ فِيهِ قُوَّةُ الْإِنْتِصَارِ لِلْحَقِّ غَيْرَ ذَلِيلٍ وَلَا مُهِينٍ وَلَا عَاجِزٍ (وَالسَّادِّينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَدْنَسُونَ) (الشورى/39)، وَلِأَنَّ الْعِلَاقَةَ الطَّبِيعِيَّةَ عَقْلًا وَشَرْعًا بَيْنَ النَّاسِ يَنْبَغِي أَلَّا تَخْرُجَ عَنْ دَائِرَتِي الْعَدْلِ أَوْ الْفَضْلِ.

الْعَدْلُ هُوَ إِعْطَاءُ الْحَقُوقِ مُحَاسَبَةً عَلَى التَّمَامِ وَالسَّوَاءِ (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ) (النساء/58)، (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) (الشورى/40).

أَمَّا الْفَضْلُ فَهُوَ السَّمَاخَةُ فِي التَّقَاضِي، وَالتَّكَارُمُ فِي بَذْلِ الْحَقُوقِ وَاسْتِيفَائِهَا (وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ) (البقرة/237).

إِنَّ مِنْ عَدْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ جَعَلَ النَّاسَ سَوَاسِيَةً، وَجَعَلَ لَهُمْ مَرْجَعًا شَرْعِيًّا يَضْبُطُ تَصَرُّفَاتِهِمْ وَيَمْنَعُ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ، كَمَا أَنَّ النِّظَامَ الْاجْتِمَاعِي لَيْسَ فِيهِ ضَعْفٌ أَوْ قُوَّةٌ، وَلَكِنْ فِيهِ اسْتِعْلَاءٌ مِنْ طَرَفٍ فَئَةٍ بَاغِيَةٍ تَفْرُسُ اسْتِكْبَارَهَا وَجَبْرُوتَهَا وَهَيْمَنْتَهَا، وَاسْتِضْعَافٌ وَخُنُوعٌ وَقَابِلِيَّةٌ لِلتَّبَعِيَّةِ الْعَمِيَاءِ مِنْ طَرَفٍ كَتَلٍ بَشَرِيَّةٍ مُسْتَخَفَّةٍ الْعُقُولَ فَارِغَةً (فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُمْ فَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) (الزخرف/54).

وقد وصف تعالى حال هؤلاء المستخفة عقولهم يوم القيامة بقوله:

(إِذْ تَبَرَّرَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ) (البقرة/166).

(وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنْ لَدُنَا كَرَّةٌ فَدَتَّبَرْنَا مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّرْنَا مِنْكُمْ كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ) (البقرة/167).

لذلك كان من الظلم حقيقة لا مجازاً أن تسكت عنه أو ترضى به أو تتحملة ولو كرهاً إن استطعت الهجرة عنه.

إنَّ الظلم سلوك خاطئ منحرف، ومرآة تكشف عمق الفساد في نفسية صاحبه وسوء مخبره، لذلك اشتد غضب الله تعالى عليه وتوعده بالعقاب الأليم فقال:

(إِنَّمَا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُّوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا) (الكهف/29).

(أَفَمَنْ يَتَّبِعْ بَوَاجْهَهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ) (الزمر/24).

ولعل معترضاً يقول: هذا عقاب الظالم فما بال الجندي وهو مأمور والساكت المستضعف وهو مغمور؟ والجواب أنَّ ميزان العدل لا يفرق بين السيد والمسود والتابع والمتبوع والفاعل والمعين على الفعل، فكلهم شركاء يجمعهم المصير الواحد (كُلُّكُمْ لَدُنَّا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُوْخَدَتْهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَأْتِيهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ) (الأعراف/38). لأنَّ الظالم لا بد له من قوة تعينه على الظلم وجند يحمونه عند ممارسته، وهتافين يشجعونه عليه، وراضين رغباً ورهباً أو استخذاءً واستضعافاً؛ وقد ورد في الأساطير أنَّ ملكاً هم بقتل جميع أفراد شعبه فقال له أحد مستشاريه: " إنَّك لا تسمى ملكاً إلا بوجودهم وإن تخلصت منهم فقدت ملكك، والأجدر أن تحتفظ بهم أذلة خائعين".

إنَّ دولة الظلم لا بد لها من أركان، وأركانها الظالم وحاشيته وأعوانه والراضون بحكمه والمستخذون بين يديه؛ فإن فقدت هذه الأركان لم تقم للظلم دولة ولا للظالمين مولة.

إنَّ للظلم دوائر كثيرة بعضها أخص من بعض، ودرجات متباينة بعضها أخطر من بعض؛ وكلما كانت الدائرة أقرب إلى التأثير في مجال الاعتقاد وما يرتبط به من تصورات، كان الأمر أدعى إلى الاهتمام به وبخطورة

نتائج، وكلما كان الظلم المرتكب أكثر شمولاً وأعمق تأثيراً كانت تداعياته أكثر ضرراً.

إنَّ أكبر دوائر الظلم هي الشرك بالله تعالى (إنَّ الشرك لظلم عظيم) (لقمان/13)؛ لأنَّه كذب شنيع وافتراء عظيم على الله عز وجل، ذلك أنَّ في الإشراف قلباً للحقائق ووضعاً للأشياء في غير موضعها، وهذا أصل الظلم وحقيقته، فمن أشرك بالله أو عدل به غيره أو اتخذ له سبحانه ندا فقد ارتكب الظلم الأعظم وخلع ربقة الإسلام من عنقه. وإذا كان أعظم ظلم للنفس هو الإشراف بالله تعالى، فإنَّ له علاجاً ناجعاً هو التعجيل بالتوبة وتصحيح العقيدة والاستغفار (إِنَّ زَنْجَنًا ذَوَّيَّةً عَلَى اللَّيْلِ لَيَسْـَـذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِرِجَالِهِ لَيْلَةً ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتَدَوَّبُ اللَّيْلَةَ عَلَايِهِمْ وَكَانَ اللَّيْلَةُ عَلَيَّمَا حَكِيمًا) (النساء/17) (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّ زَنْهَهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) (الزمر/53).

إلا أنَّ هناك ظلماً أقل درجة من الشرك الذي يتخلص منه المرء بمجرد التوبة النصوح والتوحيد الخالص؛ هذا الظلم هو ظلم العباد. وهو وإن كان أقل درجة من الشرك، فإنَّ التوبة منه معلقة برد المطالم لأهلها، مما يجعل أمر التحلل منه أشدَّ عسراً، قال عليه الصلاة والسلام: "مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عَرَضِهِ أَوْ شَيْءٍ فَلَا يَدْعِيَنَّهَا مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَنَّ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدَرٍ مَظْلَمَتِهِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِهِ صَاحِبِيهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ" - البخاري - .

هذا الظلم يتمثل في صور شتى ويتشخص في أصناف من الناس كثيرة، منهم من أخذهم الله بعذاب الدنيا والآخرة ممن ذكرهم الوحي قرآناً وسنةً، ومنهم من يعاصرنا ومنهم من يأتي بعدنا:

منهم الحكام المتألهون، والأغنياء المستكبرون والتجار المطففون والفساق السابقون والمعاصرون من قوم عاد ولوط وصالح.

ومنهم طالم أبويه بإهمالهم أو الإساءة إليهم، وطالم أرحامه بالتقصير في حقوقهم أو التخلي عنهم أو الإضرار بهم.

ومنهم طالم زوجته في عرضها بالنظر إلى غيرها بما لا يجوز، وطالمة زوجها في عرضه بالنظر إلى غيره بما لا يحل.

ومنهم الطالم لقومه أو قبيلته أو عرقه بالتعصب لهم وإعانتهم على الباطل كما قال الرسول (ص) إذ سئل ما العصبية؟ : (أن تعين قومك على الظلم) - المعجم الكبير - .

ومنهم من يظلم المسلمين عامة بعدم النصح لهم، أو عدم نصرتهم أو بخيانتهم والتنكر لهم.

ومنهم من يظلم الإنسانية عامة بالتقصير في واجب الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومنهم الدول المسلمة الظالمة التي لا تقيم العدل فيسلط الله تعالى عليها عدوها ولو كان مشركاً، كما

هو حال أمة موسى (عليه السلام) التي سلت عليها بختنصر الوثني، والمسيحيين إذ ظلموا فسلط عليهم جبابرة عبدة أصنام أذلّوهم وغيروا دينهم، وحال دول المسلمين الظالمة حالياً وقد هزمت أمام مجوس الهند في باكستان، وصهاينة بني إسرائيل في فلسطين، وعباد الوثن في السودان وعباد الصليب في العراق... قال تعالى: (وَكَمُ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا قَوْمًا آخَرِينَ) (الأنبياء/11)، (كَأَيُّ يَنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَدَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْ نَدَاهَا حَسَابًا شَدِيدًا وَعَدَّ بِنَدَاهَا عَذَابًا نُكَرًا) (الطلاق/8).

كما أنّ منهم الذين يخذلون الدعاة إلى الله تعالى والمجاهدين في سبيله والمعتقلين والمهاجرين والشهداء، بالتخلي عنهم وإهمال أسرهم وذرياتهم وعدم الدفاع عنهم؛ فإن بلغ الأمر إلى أكل لحومهم والشماتة بما أصابهم أو أصاب ذرياتهم، أو القيام بالتجسس عليهم وقذفهم، أو السعي لإطالة محنتهم، كان ذلك أقرب إلى أعظم الظلم الذي هو محاربة الله ورسوله بمحاربة أوليائه ودعاة دينه، وهذا ما عبر عنه الرسول (ص) في الحديث القدسي الذي رواه عن رب العزة قال: (مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنَنِي بِهِ بِالْعَرْبِ وَمَا يَقْرَرُّ بِي إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْهُ إِلَّا أَنْتَ وَأَنْتَ أَفْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنُّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الْبَصَرُ يَصْغُو بِهِ وَبَصَرَهُ الْبَصَرُ يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الْيَدُ يَبْطِشُ بِهَا وَرَجْلَهُ السَّيِّ يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لأَعْطِيَنَّاهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّاهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنْزَا فَأَعْلَاهُ تَرَدَّدْتُ عَنْ نَفْسٍ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُهُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَنَا أَكْرَهُهُ مَسَاءَتَهُ) - البخاري.

ذلك أنّ هؤلاء الدعاة المخذولين من قبل إخوانهم، هم في حقيقة الأمر قد اختاروا الله تعالى على ما سواه، ووالوه وعادوا أعداءه وانقطعوا لخدمة دينه، فهم أولياء له عز وجل (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (يونس/62). ولئن اختارهم الله في الدنيا للبلاء فعسى أن يكون لهم في الآخرة حسن الجزاء.

ولئن فرح المخلفون لما أصاب الدعاة الصادقين، فكفاهم عقوبة لظلمهم إن لم يهتدوا إلى التوبة قوله تعالى: (وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ) (البقرة/270)، (وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ) (الحج/71) (مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ) (غافر/18).

إنّ الحقيقة الغائبة عن أولئك الخاذلين أنّ ابتلاء الدعاة الصادقين يتضمن في واقع الأمر ابتلاء آخر للمعافين والشامتين الخاذلين، وكشفاً لحقيقة أمرهم، أما العافية والمعافة والنصر فمن الله سبحانه وتعالى وحده فقط. وما دفعهم إلى ما ارتكبه من إثم وظلم في حق الدعاة المبتلين، إلا اختلال في مقاييسهم الشرعية، وضبابية في نظرتهم الدنيوية، وانعدام المروءة في نفوسهم الدنيئة، وعسى أن تكون

موافقهم الظالمة هذه رحمة بالدعوة وتطهيراً لصف الدعوة: (مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ
الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا
كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ) (آل عمران/179).

ونظراً لخطورة الظلم وشدة غضب الله تعالى منه، وما ينتظر صاحبه من العذاب، قص القرآن علينا من
أخبار الظالمين وعاقبة أمرهم في الدنيا والآخرة ما هو كفيلاً بإيقاظ الهمم وتطهير النفوس فقال عز
وجل: (إِنَّ أَوَّلَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمْ مَا كَانُوا خَاطِئِينَ) (القصص/8)، (وَأَخَذُوا
وَجُنُودَهُ فَنَبَذُوهُنَّ فِي الدِّيمِ فَإِنَّهُمْ فِي الدِّيمِ فَأَنزَلْنَاهُمْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ)
(القصص/40)، (وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ)
(هود/67).

كما أن الرسول الله (ص) كان يحذر المؤمنين من الظلم ويحضهم على اتقائه، ويقول: (اتَّقِ دَعْوَةَ
الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيَسَّ بَيْتُهُ وَبَيْتُ اللَّهِ حِجَابٌ) - البخاري، (اتَّقِ دَعْوَةَ
الْمَظْلُومِ فَإِنَّ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ مُسْتَجَابَةٌ) - البخاري، (ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ
دَعْوَتُهُمْ إِلَّا إِمَامُ الْعَادِلِ وَالصَّائِمُ حِينَ يُفْطِرُ وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ
يَرْفَعُهَا فَوْقَ الْغَمَامِ وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ
وَجَلَّ وَعَزَّ تَبِي الْأَنْصُرَنَّاكَ وَلَوْ بِعَدِّ حَبِّ السَّمَكِ) - الترمذي. (دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ
مُسْتَجَابَةٌ وَإِنْ كَانَ فَاجِرًا فَفُجِّرْهُ عَلَى نَفْسِهِ) - أحمد.

وكان عليه الصلاة والسلام يستعيز بالله من دعوة المظلوم جهراً أمام المسلمين تعليماً لهم بقوله عند
الخروج للسفر والعودة منه: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ وَكَآبَةِ
الْمُنْقَلَابِ وَالْحَوْرِ بِعَدِّ الْكَوْثَرِ وَدَعْوَةِ الْمَظْلُومِ وَسُوءِ الْمُنْطَظَرِ فِي
الْأَهْلِ وَالْمَالِ) - النسائي.

وعندما شكأ إليه صحابي سوء تصرف فتیان لديه، فيما روته عائشة قائلاً: (يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ
لِي مَمْلُوكَيْنِ يَكْذِبُونََنِي وَيَخُونُونَنِي وَيَعْصُونَنِي وَأَشْتُمُهُمْ وَأَضْرِبُهُمْ
فَكَيْفَ أَزَالُ مِنْهُمْ؟ قَالَ (ص): يُحْسَبُ مَا خَانُوكَ وَعَصَوْكَ وَكَذَّبُوكَ وَعَقَابُكَ
إِيَّاهُمْ، فَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ بِقَدَرٍ ذُنُوبِهِمْ كَانَ كَفَافًا لَكَ لَا لَكَ
وَلَا عَلَيْهِكَ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ دُونَ ذُنُوبِهِمْ كَانَ فَضْلًا لَكَ، وَإِنْ
كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ فَوْقَ ذُنُوبِهِمْ أَقْتَصَّ لَهُمْ مِنْكَ الْفَضْلُ، قَالَ
فَتَنَحَّى الرَّجُلُ فَجَعَلَ يَبْكِي وَيَهْتِفُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ص): أَمَا تَقْرَأُ
كِتَابَ اللَّهِ (وَنَصَحَ الْمُؤَاوِزِينَ الْقُسْطَ لِيَدُومَ الْقِيَامَةَ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ
شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ... (الأنبياء/47)، فَقَالَ الرَّجُلُ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ
اللَّهِ مَا أَجِدُ لِي وَلِهَؤُلَاءِ شَيْئًا خَيْرًا مِنْ مُفَارَقَتِهِمْ أَشْهَدُكُمْ

أَنزَهُهُمْ أَحَرَّارٌ كُلُّهُمْ - الترمذي وأحمد-

كما أنَّهُ (ص) أعطى من نفسه القدوة، فأبرأ ذمته من حقوق الخلق، في مرضه قبل موته فيما رواه البخاري، إذ خرج متكئاً على الفضل بن العباس وعلي بن أبي طالب (ع)، حتى جلس على المنبر، وكان مما خطب: (أما بعد أيها الناس، إنه قد دنا مني خلوف من بين أظهركم، ولن تروني في هذا المقام فيكم... فمن كنت جلدت له طهراً فهذا ظهري فليستقد منه، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقد منه، ومن أخذت له مالا، فهذا مالي فليأخذ منه، ولا يخش الشحاء من قبلي، فإنها ليست من شأني...).
على أن من رحمة الله تعالى ولطفه بعباده، أن جعل في الآخرة أيضاً - وهي دار جزاء ولا عمل - مجالاً لتصالح المؤمنين وتسامحهم، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بينما رسول الله (ص) جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه، فقال له عمر: ما أضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟ قال: رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة فقال أحدهما يا رب خذ لي مظلمتي من أخي، فقال الله تبارك وتعالى للطالب: فكيف تصنع بأخيك ولم يبق من حسناته شيء؟ قال: يا رب فليحمل من أوزاري، قال وفاضت عينا رسول الله (ص) بالبكاء ثم قال: إن ذلك اليوم عظيم يحتاج الناس أن يحمل عنهم من أوزارهم، فقال الله تعالى للطالب: ارفع بصرك فانظر في الجنان، فرفع رأسه فقال: يا رب أرى مدائن من ذهب وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ، لأي نبي هذا أو لأي صديق هذا أو لأي شهيد هذا؟ قال: هذا لمن أعطى الثمن، قال: يا رب ومن يملك ذلك؟ قال: أنت تملكه، قال: بماذا؟ قال: بعفوك عن أخيك، قال: يا رب فإني قد عفوت عنه، قال الله عز وجل: فخذ بيد أخيك فأدخله الجنة. فقال رسول الله (ص) عند ذلك: اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله تعالى يصلح بين المسلمين- المستدرك على الصحيحين.